مسودة افكار | حمزة عبود

٩ نيسان / ٩٤

الفنان مصطفى حيدر: "مقالة" الحجر

في مطعم تيروس، على شاطئ مدينة صور، عرض الفنان مصطفى حيدر، في مطلع الشهر الفائت مجموعة اعماله الزيتية والمائية التي دأب على انجازها، لفترة طويلة عبر معرضيه الاخيرين في دار الندوة (بيروت) والمركز الثقافي الفرنسي (صيدا).

وقد ضمّ معرضه الجديد هذا "جداريات" مستوحاة من نقوش ومنحوتات يونانية عثر عليها في الحفريات الاخيرة، قرب قوس الاسكندر في الملعب الروماني (في صور). ولكن الفنان حيدر لا يستعيد في هذه الجداريات الاجواء التاريخية للمنحوتات والرسوم المنقوشة التي تنقل الينا صورا من ملحمة هوميروس (هكتور وأخيل...) ومحظيات باخوس ورئيس كهنته، وتمثالا لالهة النصر فكتوريا، بقدر ما يستشرف ابعاد هذه المنحوتات وتعبيراتها الجمالية كمادة مستقلة. فالاثر التاريخي، في الجداريات، هو موضوع اللوحة. وان فكرة الزمن التي تطغى على اعمال الفنان تتصل بملامح الاثر نفسه اكثر مما تعبر عن الوقائع والمعادلات التي يمكن ان يفضي اليها هذا الاثر. ولذلك هو يضعنا امام تحولاته (الصعبة) وعوامل انصهاره وتشكله في حقبات متباعدة.

فالرسوم المنقوشة التي تنقل مشهدا من ملحمة هوميروس مثلا لا تشير فقط الى مرحلة في تاريخ صور في العصر اليوناني. بل هي تتحول، في الجدارية (٢,٥ ×٥م؟) الى اثر تمتزج فيما ظلال المدينة وايقاعاتها ليصبح جزءا من معالمها وحركتها... في هذه الجدارية الازرق البحري المشبع بشمس ضاربة جعلته جافا وشاحبا والتجاويف الداكنة بلون الغبار، والاجزاء المتآكلة تحت ركام عشوائي...، كأن الفنان يشير الى التعبيرات اللاحقة لاكتشاف "النقش" – لا يزهو به بل يألفه كجزء من المشهد اليومي.

في الجداريات الاخرى (محظيات باخوس ورئيسة الكهنة والهة النصر تبدو الرموز اكثر تحريكا لمخيلة الفنان. فهو يعمد هنا الى قراءة الايماءات المقتضبة (والبارزة) للرسوم والمنحوتات دون ان يتعرض الى مساحة الاثر نفسه (فضاء المنحوتة واطرها). وان ما يبدو من تأثيرات هذه الرموز وحركتها سوف يقتصر على الالوان والظلال المستمدة من مساحة الاثر ومادته الطبيعيين (الاصفر الداكن والازرق المتّسخ، وتفاوت درجة اللون في المساحات المتآكلة... في احدى محظيات باخوس).

في الاعمال المائية الاصفر حجما تبدو هذه الظلال والالوان مقروءة دون عناء في التأملات الرومانسية التي ادمنها الفنان في علاقته بالمدينة. كأنها من ذاكرة قريبة نستعيدها او نلم بها في اشارات موجزة. وقد تحدّ هذه الاشارات من طغيان الاشكال والجسوم لتتخذ بعدا "تعبيريا ظاهرا. او هي احيانا مساحات لونية – اقرب الى التجريد – لا تلبث ان تتلمس حدودها في تقاطعات عفوية هادئة.

واذا كان الحديث عن مائيات حيدر يستدعي "حديثا" آخر لا تتسع له هذه السطور فاننا نتوقف باهتمام عند الجداريات التي تغادرها يدا الفنان بعد شمور، لتظل معلّقة على جدران مطعم تيروس في الجهة الجنوبية من المدينة.حيث الذاكرة "وحدها"...

في مواجهة عزلات كثيرة!